من الأدب الإسباني

سراب

ألبرت صولا

ترجمة

د. أشرف اللغميش

مسرحية

إلى نساء عائلتي،
إلى **أليسيا كونزاليس لا** وإلى **أندريا سيكورا**، صديقاتي وجزء من عائلتي.

"مرة أخرى أنا، تماما مثلما لست أنا"

فرناندو بيسوا (برناردو سواريس)، كتاب اللاّطمأنينة.

ممثلة، أو ثلاث ممثلات.
تدخن، (أو على الأقل واحدة منهن).
صالة مريحة.

فتحت الباب لأجد العجوز. كل شيء بدا غريبا منذ أن رن الجرس، هرولتي عند نزول السلالم وظهور تلك المرأة. لم أندهش للصمت الذي حل بيننا نحن الاثنتين عند فتحي للباب بدون قواعد مجاملة، دعونا من الكلام عن كيفية حدوث مثل هذه المواقف. رغم أنها لم تنبس بكلمة، أعتقد أن العجوز أتت متأخرة...

تتثاقل شفتاها في لفظ اسمي، وكأنهما سينفلقان إلى أجزاء:

- " بلانكا"، - تنادي.

شفتاي أنا أيضا كأنهما مختومتان من تأثيرها. تكرر اسمي حتى أجيب. لا أجيب، لأنه لا يبدو لي من اللائق أن تصدح بصوتها العالي باسمي. اسمي، الذي هو أيضا اسمها. أخيراً تقولها:

- "أنا أمك. لقد جئت لأعتني بك".

أبتعدُ بنظري عنها، أنظر لأعلى، بين المنازل حيث يمكنك رؤية أفق مراكش الملتهب. أتساءل أين أنتَ. أتساءل لماذا لا تساعدني في كتابة هذه الرسالة. هذه الرسالة هي أصعب شيء أقوم به على الإطلاق. لا أصدق أنها مجرد قطعة ورق. مجرد حروف على صفحات بيض يمكنها أن تدينني أو تنقذني للأبد. هي تتحدث، على الرغم من أنها تحدثني، لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كنتَ ستأتي لاصطحابي في الوقت المحدد؟ أخوكَ سيصل هذه الليلة، متأخرا. هناك حفلة أخرى من تلك الحفلات البغيضة في السفارة. إذا كنتَ ستأتي، فسوف أضطر إلى الكذب للاعتذار. كيف أصف لك السرور الذي أحس به لمجرد التفكير في ذلك؟ ولكنك لا تجيب على الهاتف. لا شيء يحملني على البقاء هنا، هذا أكيد، ولكن في الوقت نفسه ولسبب غريب، أعتقد أنه لا يمكنني ترك هذا المكان. أيا كان ما أقرره، أعتقد أنني مخطئة. أيا كان ما أكتب لا أريد أن أكون هنا، لكن لا يمكنني أن أتخيل نفسي في مكان آخر. ما هذا الجبن الذي يجتاحني؟
والدتي لا تزال هناك. لا يتركها الفضول. تعود لفتح فمها مرة أخرى:

- "هل أنت متزوجة؟"

أومئ قليلاً:

- "زوجي لن يعود حتى ليلة الغد."

أبادر بسؤالها عن اسمها. أهو نفسه؟ أو بالأحرى هل يزال اسمها هو نفسه؟ للحظة اعتقدت أنه قد لا يكون لها اسم الآن، أو أنه لم يعد لها اسم، أو أنه لم يتبق لها اسم... لماذا كان عليها أن تأتي اليوم بالتحديد؟

- "بلانكا" -تقول قبل الدخول-"لم يكن من السهل الوصول إلى هنا. هذا المكان مخفي جدا".
تقولها مع ابتسامة صفراء، أثناء عبورها عتبة المنزل.

أدخلتها إلى استوديو خوان: أخوكَ لا يستخدمه أبدًا، لم يعد يرسم ولا أي شيء. إنه لا يدخن فيه حتى. حقائبها لا تتسع هنا علينا إخراج حامل لوحات الرسم. إنه مغْبَر، مثل أي شيء آخر هنا، كذريعة، يجب أن أخبر أمي أن لا أحدَ يدخل هنا على الإطلاق. أنا أيضا لا أستطيع أن أكتب أي شيء هنا. في الحقيقة، الآن، بشكل عام، لا أدون ملاحظات حتى. وليس ذلك لضيق الوقت... إنها لا تسألني عن أي شيء، إنها منشغلة، تخرج ملابسها من الحقيبة وتعلقها في الخزانة. تبدو أكبر سنا؛ تعبُر وجهها تجاعيد عمودية. أبدأ بالتعرق وأطلب منها أن تتركني. لكنها تهز رأسها رافضة. تذكرني أنني لست الوحيدة التي تتعرق. أقدّم لها بعضا من عصير الليمون البارد، وأشغل المروحة ونجلس عند طاولة الصالة. الحرارة تتراجع شيئا فشيئا. لا أستطيع تحمل ضجيج فمها عندما ترشف. تتكلم مرة أخرى:

-"دعيني أخبرك قصتي".

أومئ برأسي. حتى تصل أنتَ أو تجيبني على الهاتف، من الأفضل أن يمر الوقت بسرعة، أقول لنفسي.

وقت

-"لقد ولدت قبل أن يخترع والدك آلة رش الدواء. لم يفعل شيئًا سوى التصميم، لا شيء عدا الرسم والتصميم، لكن براءات اختراعه لم تدرْ شيئا. من ناحيتي، نذرت ألا أذهب أبداً لرؤية ما كان يعجبني حقًا: المسرح. حتى لا ينقصني ما أطعمك إياه. عندما دخلتِ التلفزيونات حياتنا، اكتشفت أنه في صندوق العجب هذا مسرحية مذاعة. قمت وركضت إلى الكنيسة لأستفتي الكاهن ما إذا كانت مشاهدة المسرح على شاشة التلفزيون إخلاف

لنذري، لم أكن لأحرمنا من الطعام من أجل ضربة زر. "ما هذا يا امرأة؟ طبعا لا! " أخبَرني، وضحِك. كان ذلك في الفترة التي وصلت فيها والدتي من الأرجنتين. أنتِ لا تتذكرين، لأنك كنت ما زلت تحْبِين، ولا زلتِ لا تمشين بعدُ حينما لفظت روحها. والدك في مكتب براءات الاختراع، وأنا أغسل الملابس. أسمع أحدهم يصرخ باسمي في الساحة. من الشرفة المقابلة، تخبرني إحدى الجارات أن سيدةً تسأل عني عند مدخل الشارع. أنزل الدرج مهرولة. ليس لدي أي فكرة عمن يمكن أن تكون. لم يخطر لي على البال أن تكون أمي. فتحت باب العمارة، لأجد مسنة جالسة على صندوق. لقد أحببتُ دائمًا لعب اليانصيب، كما تعلمين، لقد كنتُ مدمنة. فزت في مناسبة واحدة، لن تتذكري ذلك أيضًا، لأنك كنت ما زلت طفلة. بذلك المال، كان بإمكاني شراء منزل، لكنه بدلاً من ذلك تراءى لي شراء شال *مانيلا*. خبأت هذا الشال طوال حياتي في صندوق والدتي هذا، هذا الذي هناك. لا أفهم ماهية ملئه بهذه الأوراق البالية... جاءت تقول لي: "أنا أمك. لم يتبق لي ممتلكات أكثر من هذا الصندوق. أعلم أنني تركتك في القرية، عندما كنت طفلة. لكنك كاثوليكية، وواجبك كابنة هو بري. كنت دائما خائفة من أن أصبح جزارة مثلها، الزواج من والدك أنقذني من ذلك الجحيم. أول شيء رأيته كان يديها المليئة بآثار الجروح. قمت بإدخالها، لأنني كنت قد لمحت في كل نافذة في الحي امرأة واحدة على الأقل... جدتك لا تريد الماء ولا الخبز حتى. لم ترغب حتى في الجلوس على كرسي، لقد كانت عجوزا ملتصقة بصندوق. كانت تتحدث كمن يفعل ذلك في اللحظة الأخيرة: "كنت أقطع اللحم جيداً". قالت: "منذ أن كنت طفلة وأنا أرغب في أن أكون جزارة. سخر والدك مني، قبل موته: "كيف يمكن لشخص يحمل هذا الاسم الحساس أن يكون لديه محل جزارة؟ بلانكا، الجزارة!". صرخ ضاحكا. "دائما كان والدك يريد المشاركة في الحرب، حسب ما فهمته، جرب أولاً في حرب كوبا، لكن سنه لم يكن يسمح بذلك، أخبروه أنه كان يافعا جدًا حينها، لكنه أصر على الذهاب للحرب، لذلك عندما اندلعت حرب المغرب سجل اسمه في اللوائح أيضا، ولكن لم يتم اختياره، و هكذا حتى حرب الريف، "الثانية"... وفي هاته نعم، نعم يا ابنتي، نعم هذه نعم..

على الرغم من أنه كان قد أكل عليه الدهر وشرب وكنت أنت في الأفق... "إنه واجبي". قال: الوطن، وتلك الأشياء. كان واجبه أن يكون هنا معك، ومعي أنا. تمنيت لو لم يسعفه الحظ... لماذا اضطر إلى المغادرة؟ من أجل الوطن؟ حقا؟ حسنا، هناك انتهى. بعوضة لدغت صلعته فمات بالتيفويد، تحت الشمس. بعد ذلك، لم يسخر أحد من اسمي، ومجزرتي كانت مزدهرة. جاء الناس من البلدات المجاورة لشراء اللحم. كان طرياً كالعسل، بالكاد يكون فيه أعصاب وكان من دون عظم. فرانسيسكو كان الغلامَ الذي يزوّدني باللحم. عندما توفي والدك، لا أعرف ما إذا كنت حينها عملت بمزيد من المتعة، لكن التجارة كانت أفضل. وكان فرانسيسكو يأتي أكثر فأكثر لجلب اللحم. في فترة معينة كان يأتي ثلاث مرات في الأسبوع. كنا نحب التدخين معا. في بعض الأمسيات كنا نخرج للتدخين في ساحة المجزرة بعد تفريغ كتل اللحم ومراقبتها. كنا نتحدث وندخن كثيرا، كم كان مسليا. كانت السجائر تتلطخ بالدماء. أنا حينها كنت أرملة وهو كان متزوجًا. لم يكن شيء ليغير حياتنا. لم أندم أبدًا على ما حدث. كنت سعيدة جدا لكنه بدأ يطلب مني المال. في الحقيقة، في كل مرة أكثر. بالطبع، كنت أدفع بسرور." قالت." لقد كانت زوجته مريضة، أو هكذا قال. لم أكن أرغبُ في أن يشيع ذلك في البلدة، حتى لا يتوقف أولئك السفلة عن التسوق من مجزرتي. "بلانكا، الجزارة الزانية." سمعت والدك يقول في مخيلتي. فرانسيسكو كان يمتثل لما كنت أطلبه منه وأنت كنت محمية ماديا. لم أكن بحاجة إلى العار. فيم يفيدني تقطيعي الجيد للحم إذا كنت أكسب أموالًا أكثر من حاجتي للعيش؟ كنا جميعا راضون على هذا الوضع. لكن باكيتو بدأ يطلب مني المزيد والمزيد. سألني الكثير، لم أكن لأمنحه ما كان لك.

كان باكيتو في تلك الليلة يشرب كعادته في البار. أفشى سرنا أو تم استدراجه، كيف عساي أن أعرف؟ كان سكان القرية يكنون لي كرها ليس بالقليل، بسبب اليانصيب الذي فزت به. وغيرة كذلك، فلم تبرع إحداهن في تقطيع اللحم مثلي. القطع السميكة التي كنت أمنحها، البقايا التي وهبتها لصنع الكروكيت، كل رشاوي اللحمية لم تجديني نفعا معهم... كانت أوقاتا مظلمة وكان الناس في جهل عظيم. في اليوم التالي، لم يكن في المجزرة حديث غير هذا. فتى المسلخ يعاكس بلانكا الجزارة. رميتهم جميعًا خارج المحل وأغلقته. بعد ظهر ذلك اليوم نفسه رحلنا

في سيارة إلى برشلونة. هناك، فتحت مجزرة ثانية. صدقيني، لقد حاولت حقًا. هربت إلى برشلونة، نعم، لكن المسافة لم تكن كافية. بعت المحل ووهبتك للدير للتبني. وكلت الراهبات على مالك. اعتقدت أنك ستكونين أفضل من دوني، وتلك الأشياء. لم أكن أريد شهادات حية لعاري. بمرور الوقت، كنت ستكبرين وستحكمين علي. لقد انتهى الأمر بأسوأ حال. المهم، كل شيء كان يحدث في أسوأ حال. لهذا انتهيت إلى أنه بين القيام بشيء ما وعدم القيام به، من الأفضل دائمًا عدم القيام به... أبحرت في نفس الليلة التي تركتك فيها. في الباخرة، انهار سقف المقصورة المتعفن علي. اخترت الأرجنتين لأنني كنت أحترف تقطيع اللحم، بالطبع. فتحت مجزرة في بوينس آيرس. هناك أيضًا، كان العمل مزدهرًا، لكنني ظللت أفكر في فرانسيسكو. الجميع يخطئ، أعلم أنه أحبني بل كان الشخص الوحيد الذي أحبني حقًا، وما إلى ذلك. المرأة تعرف هذا، أنت الآن تعرفين ذلك. أكثر من هذا، كتبت له بطاقة بريدية، نعم، نعم، كتبتها...

في الليل، ناجيتك في خاطري كثيرا، لكنني كنت أخشى أن أكتب إليك. قالت لي مرارا وتكرارا: ابنتي، هل تتفهمينني؟ ... بعد بضعة أشهر طرق فرانسيسكو باب متجري. ومعه زوجته وابنه. والآن ماذا أفعل بهؤلاء؟، لقد دمرني وندمت. كان هذا وصوله"". -تقول أمي.

وقت

أمي تروي بالفعل قصتنا. قصةٌ تخيلتها منذ سنوات، أعدتُ كتابتها مرارًا وتكرارًا في رأسي، غير قادرة على خطها على الورق. وبعد أن أخبرتني، الآن ما أريده حقًا هو أن تسأل عني. لكن يبدو أن قصتي لا تهمها كثيرا. قررت أن أستسلم لسردها. ربما عندما تنتهي، لن تكون هناك حاجة للسؤال عن قصتي.

وقت

-" اختفاء جدتك كان بعد شهر واحد فقط من وصولها، في إحدى الليالي لم تعد من مسيرتها اليومية" .

أمي تتردد. تأخذ نفسًا وتقول:

-"لم تظهر طوال الليل. حسنا، ولا أنا بحثت عنها. تعايشنا كان صعبا. كان غيابها خير من وجودها. لدرجة أنني تمكنت من النوم تلك الليلة. كانت أحلامي سلمية إلى أن استيقظت. غفلت عن اختفاء أمي، كنت أشرب القهوة عندما سمعت أصواتاً تناديني من الساحة مرة أخرى، تدعوني للركض إلى المقبرة، شيء يخص والدتي. عند نزولي، قالت الجارات أن حارس المقبرة وجدها هناك في الصباح. بقيت محبوسة طوال الليل. سألت كيف كان ذلك، لكن لا أحد أجاب، أو قالوا إنهم لا يعرفون. كنا كثرا. قادنا الحارس إلى أمي. جثة هامدة، في قبر فارغ، هي من أدخلت نفسها فيه. بلانكا، ابنتي، أشعر بتعب شديد، هل تمانعين أن أستلقي قليلاً ثم نكمل بعدها ؟"

وقت

متعبة؟ تركتها تذهب إلى الاستوديو، ماذا أقول لها؟ بينما تستريح، أعد في المطبخ المزيد من عصير الليمون ليبرد. الحرارة لا تطاق... لا أفهم جيدًا ما يحدث، أنا أعد عصير ليمون لأمي التي لا تشربه أصلا! ألم تقل إنها جاءت لرعايتي؟ لماذا تذهب هي لتستلقي وعلي أنا خدمتها؟ لماذا في مثل هذا الوقت السيئ؟ لماذا بالضبط الآن بعد أن قررنا المغادرة؟ لكنني لن أتردد، لن أسأل نفسي إذا كان علي المغادرة أم لا؟... لم أرها منذ أن كان عمري سبع سنوات... اليوم لن أوبخها بسبب غيابها، لا. أريد أن أعرف ما لديها لتقوله، فهم الأسباب التي لم أكن مسؤولة عنها، والتي دفعتني للعيش بهذه الطريقة. لترك كل شيء ومرافقة خوان إلى هنا. في هذا المكان الذي لم أستطع مغادرته حتى الآن. سوف تساعدني أنتَ على الهروب منه، لأن هذا سيحدث. خوان سيكون بخير. بعد مدة أو أخرى. ماذا كان سيحدث لي لو لم يصلكَ خوان بالسفارة؟ أخوك خوان لم يهتم بي. في

الحياة، لا يكفي أن تكون طيبا. لا يمكنك أن تكون أفضل صحبة فقط. أعلم أنه ليس من العدل أن أقول ذلك، لكنني قلته بالفعل. لقد انتظرت كثيرا لا أستطيع الانتظار لفترة أطول. وصول أمي، قصة جدتي، تسارع كل شيء بشكل أنساني مشاكلي الخاصة. لا أستطيع إخراج صورة المقبرة من مخيلتي. لديّ الان فرصة سانحة للإجابة عن الأسئلة التي طاردتني منذ صغري. لماذا اختفت؟ لماذا لم يتحدث عنها أبي؟ لماذا لم تسأل عنه؟ هل تعلم أن أبي مات؟ لا. الان، أنا لا أريد أن أقاطعها. سوف أسمع ما يجب أن تقوله فقط. عندما تنتهي من الثرثرة، آمل أن أتذكر بعضا من هذه الأسئلة.

وقت

شاردة في أفكاري، أنسى إيقاف الخلاط الكهربائي.

-"يكاد يتطاير منه الشرر" يقول صوتها ورائي.

لا أستطيع أن أكتم سؤالي. أواجهها: لماذا لا تسألينني عن والدي؟

-" كتب لي والدك قبل وقت قصير من وفاته. في كل هذه السنوات تكاتبنا مرتين أو ثلاث مرات. لهذا السبب كان لديه عنواني. كنت أسأله عنك، في المرة الأخيرة كتب لي لأنه أراد أن يقول وداعا في سلام. أخبرني عن مرضه وكيف اعتنيت به. اعتقد أنه حان الآن دوري أنا لرعايتك".

الآن؟ تم سحق الثلج تماما، أضيف له النعناع، تطلب مني ألا أضيف السكر. أقدمه في كأسين ونجلس هناك في المطبخ، ترشف بجرعات كبيرة. يا إلهي، تلك المرأة لا يؤثر فيها حتى الليمون!

- "لم أعتذر لوالدك، أنا أعتذر الان منك أنت من خلال شرحي... لقد وضعتك بالفعل في السرير، عندما جلست لقراءة الصحيفة" تقول.

وقت

"منذ الصباح، رأيت الخبر بين يدي والدك، بينما كنت أضع له القهوة على الطاولة. وأخيرا وحدي، لأجلس أمام الصحيفة، أتملص من رغبة ملحة في النوم، لكان أبعدني لا محالة عن كل هذه المشاكل والقلق. لا أستعجل البدء بالقراءة. أسكب كأس 'كونياك' وأشعل سيجارة لأتيح لنفسي وقتا للتفكير فيما إذا كنت أريد حقًا القيام بذلك. أفتح الصحيفة وأنا أشك في أن ما لمحته كان مجرد وهم. لا، لم أتخيل ذلك. لقد خرج *النيغرو* من السجن. يرافق الخبر صورة له عند باب السجن... كانت عملية سرقة مشهورة. لا أحد مات، لم تصل الأمور لهذه الدرجة. كما هو الحال في كل مرة، كان المال وراء ذلك. يرتدي معطفا طويلا. يظهر جليا طول قامته وأنفه الدقيق وحواجبه العالية، بالكاد تُرى شفتاه. مرت خمس سنوات فقط رغم أنها بدت لي طويلة وأبدية.

يطلق عليه أصدقاؤه لقب "إل نيغرو" أو "نيغريتو"، ليس لأنه أسود، ولكن لأنه فتى ذو بشرة سمراء، كسكان الضواحي. لا يزال وسيما كما كان من قبل تماما. أو أكثر وسامة حتى، يبدو أن الحبس هدأ من روعه... أجول ببصري في غرفة المعيشة، كل شيء لا يزال هادئا، فقط يداي ترتعشان. أطوي الصحيفة وأرمي بها في صندوق المجلات. أخرج إلى الشرفة. تمتزج رائحة الياسمين برائحة مياه عادمة معلنة ليالي الصيف الأولى، لا يحدث هذا في العالم كله إلا على شرفتي. المدينة تتلألأ بصمت تحت ناظري. أعلم أنه يمكنني الآن مقابلته في أي شارع. حتى في تلك اللحظة بالذات إن أنا غادرت المنزل. قررت أن آخذ نصف حبة دواء أكثر من المعتاد. قبل دقائق قليلة من رنين المنبه، أجدني مستيقظة" تقول "ينير عنق والدك شعاع يتسلل بين الستائر المسدلة حتى المنتصف. ألعب قليلاً بشعره، لكنه لا يريد أن يستيقظ. أستيقظ ولا ينتظرني إلا حرارة اليوم. لا يزال المنزل صامتا، لم يتغير شيء. بينما أقوم بصنع القهوة، لمحت الصحيفة على رخام المطبخ. من خلال النافذة، أرى السماء صافية من السحب، أشرب قهوتي، أعود إلى الغرفة وألبس أول شيء ألمحه... أطفئ المنبه. في المطبخ، أضع المقص في كيس وأدسه في حقيبة ال *Vanity* مع الصحيفة وبعض المجلات. أغلق باب المنزل بهدوء. في المصعد أقوم بقص الخبر ووضعه في قاع *الحقيبة*. الجميع يعرف أنني لا أستطيع قضاء الكثير من الوقت دون إعادة لمس

ماكياجي لهذا حملي لل *Vanity شيء روتيني لا يدعوا للريبة*. رميت الصحيفة في سلة المهملات وعدت إلى المنزل. لا يزال هادئا. أحضر قهوة ثانية وآخذها إلى والدك في الفراش. "لم أنت متأنقة هكذا؟" كان أول شيء أسمعه طوال تلك الساعات. "استيقظت برغبة في القيام ببعض الأشياء." (من الأفضل دائمًا أن تقول شيئًا عندما يتوقعون منك ذلك). قبلني مودعا وأعتقد أنه كذلك تأنق زيادة لمجرد الذهاب إلى المكتب. من تُراه يريد أن يقابل؟ عندما يحدث كل ذلك، أجلس على كرسي، وعلى الرغم من أنه مازال مبكرا، أشعل سيجارة. الضوء شديد للغاية، لذلك قررت خفض الستائر في الغرفة... لا أشعر برغبة في الحديث، هذا كل شيء. في بعض الأحيان لا تجد الرغبة حتى لقول أتفه الأشياء: صباح الخير، مساء الخير، هل نتناول العشاء؟ إذا سألني أحدهم ما الخطب كنت سأجيبه بأنه لا رغبة لي في الكلام، الصمت ينعشني... السرير ملجئي. لا أستطيع القبول دائمًا بسماع كل شيء. حينها، يصبح السرير أكثر رحمة... أحيانا، لا يمكننا الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث. بينما أرتاح أنا، لا يستطيع والدك دخول غرفة النوم. عند وصوله من العمل، يذهب مباشرة للنوم على الأريكة في غرفة المعيشة. يسألني دائما إن كنت بحاجة إلى شيء ما.... أنا أيضا أحتاج الآن أن أصبح أكثر هدوءا. غضبي وصراخي، أصبحا من الماضي. أحب الوقت الذي يمر دون أن أُسأل عن سبب صمتي. أو إذا ما كنت أعلم سببه. هؤلاء لا يسألونني شيئا حتى أيأس من إمكانية سؤالهم. تملصهم من السؤال نفسه يزعجني. الان لا يوجد سبب واضح أبرر به حالتي هذه وكسري للطاولة الزجاجية في غرفة الطعام... يوم الأحد قررت الخروج عن صمتي، غادرت السرير لأعد أول وجبة لنا معا. تفترض جميع نساء هذا المنزل أنني بعد منفاي في السرير، أرغب في الطبخ لجميع أفراد الأسرة. كإلتافة تجاه الآخرين. إلتفاتة، لأنهم يضنون جميعًا أنه دين علي يجب سداده. أعد طبق الكانالوني الشهير واللحم المشوي. رغم ذلك، صمت رهيب يحوم حول المائدة. ينتظرونني البدأ بالمزاح. بينما أحضر الخبز، تشكو حماتي من أن البيشاميل سائل زيادة، "هل نسيت الطبخ أثناء فترة النقاهة؟".

الجو حار جدًا، ذاك الحر الذي يتحول إلى قر بتقدم النهار، أو على الأقل هذا ما يبدو لي. يجب أن أنهض من على المائدة وأذهب حتى المنضدة لأجلب منديلا أجفف به عرق رقبتي. بينما يتكلمون، أحدق في تفاصيل

الغرفة هربا من حديثهم، تلك الصورة مائلة، شراشف الأريكة مبعثرة، الثريا تنقصها مصابيح، من قام يا ترى برمي المصابيح المتلفة ولم يغيرها بأخرى جديدة؟ بدلاً من وضع صينية اللحم على الطاولة بهدوء، أرمي بها على الطاولة بعنف، تتكسر وتصيب بعض قطع الزجاج قدم حماتي... لم يكن صمتي الأخير ليقارن بهذا".

وقت

ما زالت والدتي لا تسألُني عن خوان. أجد هذا غريبا. لا أستطيع إخبارها شيئا ولو أن بودي أن أشرح لها كل شيء. يبدو أنها كانت تتحدث إلي منذ شهور في غيابي. الآن وجودي أمامها لا يغير شيئا.

- " لكن في صباح اليوم التالي نهضت من السرير لأخرج" تقول " أرتدي قميصا بنيا فاتح اللون وتنورة بنية داكنة. أتجاهل لآلئ جدتك... سلسلة ذهبية فقط لأزين رقبتي. أتفادى المترو لأنني لا أتحمله، كم أمقت هذا التحت الأرضي. لا أشعر أنني بحالة جيدة بما يكفي للمشي، لذلك استقل الحافلة. ضوء الظهيرة يومض بين الأوراق الخضراء. رقصة الظلال تخفف ضغط الصيف على أجساد المارة. برشلونة كأنها خيال، سراب، كما تسمونه هنا..." تقول.

وقت

سراب، سراب، أكرر، كما لو كنت أملي على نفسي شيئًا لا أفهمه تمام الفهم. تعودُ للحديث عن قصتها:

- "اختار حافلة لا تتركُني في الساحة مباشرة. أفضِّل أن أقوم بجولة قبل ذلك. بدأ قلبي بالخفقان، تبدو الشوارع المؤدية إلى الساحة ضيقةً جدا.. سيشتغل عاملا في متجر القبعات الذي يملكه أهله، أين سيعمل إذا لم يعمل هناك؟ قبل وصولي، لجأت إلى حانة. إنها مليئة بالعمال وبروائح السجائر والقهوة. أطلب الكونياك وأدخل الحمام.

أمام المرآة، أفتح الـ*Vanity* ، وأشم قصاصة الصحيفة. عندما أرفع نظري، أرى الأخاديد تعبر وجهي، يمكن قراءة سنوات النضج فيها. بعبارة أخرى: أصبحت عجوزا. هل سأعجبه؟ أأذهب أم لا؟ أشرب الكونياك دفعة واحدة. أدفع وأغادر الحانة، أعرج على الجهة المعاكسة للساحة. أذهب إلى المنزل مباشرة وأتأكد من أنه لا أحد هناك. الخادمة تأتي مرتين في الأسبوع ونحن في يوم الأربعاء. استلقيت على السرير مصمّمة عدم الاستيقاظ مرة أخرى".

وقت

أنا أيضا لم أخرج من الفراش منذ أيام إلا لتغيير الملاّئات. لكنني مختلفة، فأنا لا أحب أي شيء أحبته جدتي أو أمي. لا النبيذ ولا الكونياك: شرابي أنا الجين- طونيك! خوان لا يحبه. من الجيد أنه لا يعلم أنني لم أنهض منذ أن سافر. هناك الكثير من الوقت، هذا ما يضطرني للتفكير في كل شيء. لماذا لا تَأتي؟ هذه هي الفرصة المناسبة. ألم ترَ رسائلي النصية؟ كيف سأكتب الرسالة إذا لم تجبني؟ لقد انتظرتُك لساعات.

وقت

-"أسمعهم كما لو كانوا جميعهم على الجانب الآخر من ورق رفيع جدًا". - تقول –"همساتهم تشكل موسيقى ممتعة في مخيلتي، نوع من نقنقة الضفادع. أرى ظلالهم الصغيرة مشوهة أحيانًا. مرة بيد كبيرة ومرة بأذن عملاقة. يحاولون مداعبتي، لكنهم بذلك يوسخونني. لو كنت أرتدي نظارة لقمت بتنظيفها مرات ومرات حتى تخدش. أحب النظافة لدرجة كبيرة. حتى أنه يوم وفاة والدتي، قمت بتنظيف المنزل بالكامل، قبل وصول المعزين" .
ما تقوله يثير انتباهي لأنه وفي يوم زفافي، نظفت أنا أيضا المنزل كله حتى تجده عائلتي نظيفا لا تشوبه شائبة. أو لربما نظفته من أجل والدتي؟ لكنها لم تأتِ حينها، لقد أتت الآن. لقد أتت من حيث لا أدري. في كل ما

تقوله لا أستطيع سماع سوى ظلال فقط، ظل غير مرئي وغير مؤلوف بالنسبة لي، شيء من هذا القبيل. لقد أصبح عصير الليمون دافئا، لكن هذا لا يهم. أنا لم ألمسه حتى، ولا هي فعلت. كل ما تقوم به هي هو مواصلة قصتها. كل شيء غير ذلك لا يهمها في شيء.

-"أسبوع وأنا في السرير. في السرير، لعدم قدرتي على التعامل مع أي شيء آخر. كانت الساحة هناك في مخيلتي، لدرجة جعلتني أعتقد أنني لن أجدها في الواقع. لم أستطع المرور من هناك طوال تلك السنوات الخمس. شعرت بأن النيغرو قريب جدًا، حتى أنني ظننت أحيانًا أنه يرى ما أفكر فيه، كما لو كان معي. في بعض الأحيان يخيل إلي أنها حقيقة، وذلك بسبب ما أشعر به نحوه..... تعيش إحدانا في طيف علاقة محتملة، تعيش أو تعتقد أنها تعيش إمكانية حدوثها مستقبلا...

في اليوم التالي قررت بشأن اللآلئ. أجربها.... أعترف أنه لم يحدث شيء يذكر حفز قراري. ربما كان الدافع الوحيد وراء ذلك أن الخادمة ليست هنا. أخبرتني أنها ستأتي في فترة ما بعد الظهر، بدلاً من الصباح...اختار فستاني الأسود المفضل. أضع اللآلئ أمام المرآة. أوظب شعري لأعلى لتبدو اللآلئ واضحة على رقبتي. أرتدي حذاء مسطحا، أسود اللون كذلك. مباشرة قبل فتح الباب، أعود وأرتدي كعبا عاليا. وأحاول رش أقل كمية ممكنة من العطر، نزغه من الحياء متطفلة نوعا ما. أعلم أن ملابسي أنيقة زيادة للخروج إلى المدينة في الصباح، أخرج كما لو كنت ذاهبة إلى أمسية بالأوبرا. لكن هذه المبالغة هي ما تجعلني سعيدة. لا يمكنك أن تتخيلي مدى السعادة التي أحسست بها! هذه المرة تحليت بالشجاعة منذ اللحظة التي رأيت فيها نفسي أمام المرآة إلى أن وصلت إلى الساحة. نصف ساعة ويحين وقت خروجه للغداء. أتجول بمحيط الساحة حتى ذلك الوقت. نصف ساعة هي فترة طويلة في مثل هذه الحالات. أنا لن أدخل المتجر، سأعطيه فرصة تحيتي إن هو أراد ذلك. لم أذهب لزيارته في السجن طوال الخمس سنوات، الآن أشعر بالأسف. من وقت لآخر أضيع في زقاق مجاور، أجول وأعاود الرجوع إلى الساحة، كما لو كنت أتنزه فقط. أعتقد أن الجميع أدرك أنني لم أكن مجرد عابرة. لم يخرج، أو لم يخرج من الباب الأمامي، أو لم أره. صاحب الكشك هو الشاهد الوحيد لخيانتي. بعد ساعة،

أعصابي لا تستطيع الاحتمال أكثر. سأشرب الكونياك في حانة أستطيع منها مراقبة المدخل (أخذت يانسون في المنزل للنفس). أكتب عنوان الفندق في ورقة صغيرة وأكتب رقم الغرفة على ظهر الورقة. "يمكنني انتظارك هنا حتى السابعة مساءا. الانتظار لوقت أطول سيكون له عواقب وخيمة لا أستطيع تحملها. سأنتظرك ثلاثة أيام من الرابعة بعد الظهر إلى السابعة. تعال أرجوك". أزج بالورقة في كف صاحب الكشك مع ورقة نقدية. أتوسل إليه أن يعطيها إياه. وعدني أنه سيفعل...

الساعات الموالية هي الأسوأ التي عشتها على الإطلاق. مستلقية على سرير النزل، أدخن سيجارة واحدة تلو الأخرى، بينما أسمع على الراديو أغاني قديمة. في كل مرة أسمع فيها ضجيجًا أو خطى في الردهة، أتناول القليل من اليانسون. وأرتب شعري، وأعاني. لا يأتي. لا أمتلك القوة للنزول إلى الساحة لأسأل إن كانت الرسالة قد وصلت... عدت إلى المنزل بعد العاشرة، أعذاري غير مقنعة بتاتا، لكنني لم أهتم. خلدت للنوم. كيف أمكنني أن أنام معه للمرة الاولى الليلة التي سبقت زواجي؟ في بعض الأحيان، كلما زاد تفكيرك بالماضي، كلما زادت ذكرياتك تشويشا لتبدو وكأنها خيال. حينها لا يوجد خيار سوى انتظار يوم جديد...

لا يأتي إلى النزل ظهر اليوم الثاني كذلك. ما زلت أدخن أكثر من البارحة، لكن الأغاني انتهت. أرتعش في صمت. لديّ إلهام ميلودرامي لكتابة بعض الأبيات، لكن يبدو لي أنه لا يوجد ما هو أكثر إلهاما من مشاهدته عاريا وهو يدخن. خلال تلك الظهيرة في النزل أتذكر كيف قابلت النيغرو. كنا قد ذهبنا أنا ويتيمات أخريات للعيش بمفردنا. وخلال الحرب التقيت به في أحد الأقبية المحصنة. كنا نصعد للسطح معا. كان لا يزال مراهقًا وكان أهله يريدون تزويجه. لكنهم لم يفعلوا بسبب الفقر والحاجة، على أي حال، لماذا سأخبرك؟ تزوجت والدك، لأنه كان الأفضل في مجموعة الأصدقاء الذين كنا نتسامر معهم في الحفلات، كان الأكثر وسامة أيضًا، كل شيء يجب أن يقال. بعد زواجي بوالدك، تابع النيغرو مراسلتي حتى التقينا مرة أخرى. كنت أكذب لأراه. خارجة مع بعض الصديقات، أو إلى السينما، إلى غير ذلك. أظن، أن والدك علم أنني شعرت بالملل، وغض الطرف حتى لا يفقدني. كم كنت أتمنى لو أني أحببته بنفس الطريقة التي أحبني بها. سامحيني لصراحتي، يجب أن تفهمي...

في النزل، في الليلة الثانية، إعادة إسترجاع الذكريات كان شبيها بالصلاة لسماع طرقه على الباب. لكن الصمت يتفشى ويعدي كل شيء... حبسوه خمس سنوات. كنت أرى كوابيس كثيرة، وأعاني من أرق مزمن. هذا الشعور لم يتركني أبدا. لم يفهم والدك أو لم يكن يريد أن يفهم. صمتي معه كان طويلا جدا وغير مبرر.. كأن نوبات صمتي الماضية حيكت لتنسج صمتا واحد يخنقني. كان هناك صمت والدك، وصمت الاسود، وصمتي معهم ومعك أنت. لم أذهب أبداً لرؤيته في السجن، لا. لماذا قاومت؟ لا أعرف كيف أشرح لك كم ترددت للذهاب إلى النزل في الظهيرة الثالثة...ما زلت أتساءل ما إذا كان ذهابي قرارا صائبا. كل ما تلا ذلك لم يكن ليحدث. لن أخدعك في هذه المرحلة، الصدق هو الشيء الوحيد الذي تبقى لي. ما زلت لا أعرف ما إذا كنت أشعر بالأسف لما حدث أم لا. عندما سمعت الطرق... فتحت الباب كأنني أكتشف سرا. إنه نفسه، نظرته لم تتغير. جزء مني كان بعيدا عن المشهد. والجزء الآخر كان هناك يتحمل العواقب. على الرغم من رغبتي الجامحة في رؤية عينيه ووجهه، إلا أنني لم أجرؤ على النظر إليه مباشرة. خلع ملابسه وقبلني. بينما كان يقبلني خلع ملابسي أنا أيضا. فمه تنبعث منه رائحة تبغ. لا أستطيع أن أشرح كيف ولماذا، فمه لا تنبعث منه رائحة كريهة أبدا. أهيم فيه، عانقني كطفلة صغيرة. يمسح دموعي بلسانه. يلعق وجهي وعنقي وشفتاي وأذناي. يضع أنفي في فمه ويستنشق أنفاسي. بعد أن ننتهي، يستلقي بجواري ويتحدث عن السجن وهو يدخن. عندما يلبس ملابسه، يطلب مني المال. لم تقبل به عائلته مرة أخرى في المتجر. وصلته الرسالة اليوم، من خلال صديقة كانت تعرف مكان إقامته. أحضرت بعض المال من باب الاحتياط فقط.... منذ ذلك الوقت، كنا دائمًا نلتقي في نفس النزل، وفي نفس الغرفة إن أمكن. الإصرار على أن تكون نفسها كان وسيلة لبناء منزل صغير للخيانة. كانت وسيلة لأندمج في كل هذا الوضع المستحدث والجديد بالنسبة لي. تعرفنا على بعضنا من خلال المضاجعة وقبلها أو بعدها تحدثنا عن الأشياء اليومية الروتينية فقط. تطورت العلاقة في صمت كبير بيننا. لم نكن نتحدث كثيرا. كلما عرفته في الفراش، أصبح أكثر غموضًا بالنسبة لي. كنت أعود إلى المنزل قبل الثامنة. كان لدي كل شيء. كنت سعيدة".

والدتي تنظر للأسفل في تلك اللحظة. تستمر في التحدث مطأطئة رأسها، وعيناها مثبتتان على رسم غطاء المائدة. ثم تنظر إلي. أعتقد أنها سوف تسألني شيئًا... تخمين خاطئ.

-"كنا نرى بعضنا البعض مرة واحدة في الأسبوع. كنت اتصل دائما بمنزل صديقتي. لم يكن لديه هاتفي أو عنوان منزلنا. نفِذ كل شيء من صندوق جدتك الذي جلبته من الأرجنتين. بعت شال المانيلا. لم يتبق سوى عدد قليل من الفساتين الداكنة فيه. لكنني لم أستطع التوقف عن إعطائه المال، لم أكن أريد أن أفقده...كنت أشعر بالذنب لعدم ذهابي لرؤيته في السجن طوال تلك السنوات... لم يكن يعرف والدك كم كان عندي من المال. لكن سرعان ما بدأ بالانخفاض، أخبرت النيغرو أنه لا يمكنني مساعدته بعد الآن. كنت مفلسة تقريبا. كان رده أن هددني بوالدك، هددني أن يخبره بكل شيء. حينها أخبرته أن كل شيء بيننا انتهى، عرفت حينها أنه لا يريدني إلا لأجل المال. "أنت من استدرجني لكل هذا." "لم لا تبدَأ بالعمل""وماذا تعتقدين أنني أفعل عندما أراك؟" "لن نرى بعضنا البعض بعد الآن" اعتقد أنها كانت كلماتي الأخيرة. " أمي تقول بعيون صغيرة جدا.

وقت

في عائلتنا نساء كثيرات، لكننا بعقلية وروح امرأة واحدة. ما هذا الملل؟ ما هذا الهراء اللانهائي؟ كيف السبيل للخروج من زنزانة أنا التي أضعت مفتاحها بنفسي؟ هل حدث شيء لم تخبرني به؟ تكسر أمي الصمت وتقاطع تفكيري:

-" لا أعرف كيف عرف الزنجي أين نعيش أو من كان والدك، لكن في أحد الأيام انتظره عند باب المكتب وأخبره بكل شيء." "إذا أقسمت أنك لن تريه مرة أخرى، كل شيء سيصبح من الماضي"، كانت هذه كلمات والدك. أرسلت الفتاة لبعض المهمات، جمعت بعض أغراضي. لم أقل شيئًا لأحد، ولم أودع أحدا.

وقت

أنا على الأقل سأترك رسالة... هاتُفك يرن، ولا مجيب هذا هو الأسوأ. أنا بانتظارك. أخشى الخروج للتحقق ولا أجد أحدا بالبوابة من جديد. عندما سأغادر المنزل، ستطاردني حتما أعين أمي في المدينة القديمة. أنا حقا أفهمها. أنظر مباشرة إلى عينيها وأقول لها:

-شكرا على مجيئك لرعايتي.

على هذا نذهب للنوم، كما لو أنها لم تعد، أو كما لو أنها لم تغادر أبدًا.

وقت

استيقظت اليوم متأخرة أكثر من المعتاد. لا أتذكر جيدًا ما حلمت به، لكنكَ كنتَ هناك. حلمت أنني فقدت منزلي وأعيش في سيجارتك: الجدران عبارة عن ورق، ولا تقاوم الكثير من الوزن، كما في المنازل اليابانية. استيقظت على قناعة بأن حياتي مرهونة في سيجارتك، قبل أن تطفأها.

وقت

-" هو آخر شيء أطلبه..." تنهي والدتي –" أطلب منك أن تستمعي لي للمرة الأخيرة، تمامًا كما كنت ستفعلين مع زوجك إذا طلب منك ذلك. احذري... انتباهك يتشتت... يجب أن تتفادي بكل الوسائل تشتت تفكيرك، هل يمكنك سماعي؟ أنا لن أطلب أي شيء بعد هذا. ماذا وقع لي؟ لا يهم. أنا نفسي لا أعرف. بلانكا، ابنتي، اعتني بهم، ولكن اعتني بنفسك أكثر. لأنك تعلمين..."

أريد أن أطرح عليها أسئلة كثيرة، الأسئلة التي لم أتمكن من طرحها أبدًا، لأنها أغلقت بالفعل باب الأستوديو

خلفها. وبين كلمات والدتي، يبدو أنني أسمع كلمات أخرى. من يدري ربما أسمعت صدى الكلمات القديمة.. "لا تضيفي لمعاناتك معانات غيرك". أسمع صوت أمي وأخواتها يصدح ورائي...

وقت

لا أستطيع تذكر شكل عينيكَ. لم أر لونهما منذ مدة. الشيء نفسه ينطبق على وجهكَ. تختلط في ذهني صورتك مع صورة أخيك. لا أعرف لماذا أفضلك أنت؟ لكان الأمر سهلاً للغاية لو كان العكس. نظرت بالأمس إلى صورة لك لمعرفة ما إذا كنت سأتعرف عليك. اليوم، استيقظت متأخرة على ما اعتدت عليه عندما أكون وحدي. ماذا بي؟ ما الذي ينتابني؟ كان لدي حلم ثان. حلمت بالبيت الذي نشأت فيه. كنت أعد الطعام للجميع في مطبخ مقطورة صغير. المساحة ضيقة و أنا مخنوقة جدا. بينما أقدم العشاء، مقصورة بعد مقصورة، هناك صمت رهيب، لا أحد يتحدث عن خروجنا عن المسار. يقول أحدهم أنه رغم كل هذا الصمت، من الجيد أن نكون معًا. بعد الأكل، أنتظر دوري لتلقي العلاج النفسي. الجو حار جدا.

عندما يأتي دوري، تضع لي معالجة شابة وعديمة الخبرة، نوعًا من ملابس منع الحركة سوداء اللون، وتسير بي في حدائق المصحة النفسية التي هي عبارة عن مقبرة. تقول أنه يجب علينا التنزه مثنى مع مريض آخر يختارونه لك بشكل عشوائي. حظي مريضة مقعدة، سمينة جداً على كرسي متحرك. هذا العلاج لا طائلة منه، أنا لست مجنونة وأنا هنا أكتئب أكثر، أؤكد.

وقت

أتذكر أن أمي لم تمت أو تحترق، إنها هنا في المنزل... وصلت أمس، لا؟ لقد جاءت لتهتم بي، أو هكذا قالت على الأقل، لكنني لم أسمع عنها منذ ساعات. أنزل إلى المطبخ. لا يوجد أثر لرائحة التبغ. لا علامة على وجود والدتي. لا أحد في المطبخ. أمي لا تزال نائمة. لن انتظر. باب الاستوديو مغلق. أنادي بهدوء. صمت، أعود للنداء. لا يبدو أن هناك أي شخص على الجانب الآخر من الباب، لكن من الصعب أن تعرف. وضعت أذني على الباب، لا شيء، ولا حتى أنفاسًا. أفتح الباب.

وقت

السرير مرتب. حامل اللوحات الخاص بخوان في مكانه. ألم نحركه عندما وصلت؟ أفتح الخزانة. لا يوجد شيء فيها. لا أثر لممتلكاتها. ولم تترك أي ملاحظة. الغرفة فارغة.

وقت

لقد برد الجو، أوقدت المدفئة في غرفة المعيشة وأخذت أنظر من النافذة. صوامع المساجد تنخر الضباب. الشمس تختنق بين هذه التجاويف. بعيدا، تحبس الحرارة قمر أول الشهر، تمنعه من السقوط. بدى هذا الصباح بمثابة حلم أيضًا بالنسبة لي، تماما كيوم أمس. أفتح الدرج الأيسر للخزانة في غرفة المعيشة، حيث أحتفظ بعلبة السجائر التي تركتَها ذاك اليوم. وللمرة الأولى، أشعل واحدة من سجائركَ وأدخنها. ما هذه الحماقة: يبدو لي أن جسدَك هو أعظم صمت أنا قادرة على عيشه. تنطفئ السيجارة وأشعلها. أشعلها عدة مرات. لكنها تنطفئ في كل مرة. يقل اهتمامي بكل شيء أكثر فأكثر. حقا؟ وظهور والدتي؟ ماذا كان ذلك؟ أشعل السيجارة مرة أخيرة. لماذا تأخرتَ هكذا؟

وقت

يبدو أن والدتي لم تصل بالأمس، لكنني سأقول أنها فعلت. لا أدري كيف قضيت الصباح وفترة بعد الظهيرة، يبدو أن رأسي لم يتوقف عن الدوران وعن التفكير في كل الأشياء التي سمعتها في الساعات الأخيرة. أنا أدخن سجائرك واحدة تلو الأخرى. أنا أدخن بالقرب من المدفئة... وأشعل سجائرك من النار مباشرة. يخفت ضوء الغرفة ولا يبقى غير رأس سيجارتك المتوهج، فجأة أراها مرة أخرى أمامي: جدتي تدخل قبرها. أنا لا أعرف صورة أكثر صعوبة من هذه. لا يوجد سوى سيجارة واحدة في العبوة. فجأة أرى نفسي هناك، في قبر جدتي، في نفس حفرة أمي، مثلهما تماما، ربما فعلتاها، من يدري، أيا كان، يجب علي الخروج من هنا.

ظلام.